تأسيس هوبز لعلم السياسة

د. باقر ابراهيم الزيدي / كلية الاداب/ قسم الفلسفة/ جامعة واسط

ملخص البحث :

هل يمكن ان نعد هوبز حاسما في تأسيس علم السياسة مثلما عد ميكيافيلي.؟ اننا نسعى في هذا البحث الى استجلاء العناصر الاساسية لمقاربة هوبز الساعية لتأسيس علم للسياسة ، من خلال تأسيسه على علم للطبيعة البشرية ،مؤسسا على فرضية بأن هذه الطبيعة ،هي مجرد امتداد للعالم الفيزيقي بقوانينه المادية الصارمة بمعنى أن تصبح البيولوجيا امتدادا للفزياء .وبعبارة هوبز "اذا كانت الفزياء شيء مطلق الجدة فأن الفلسفة السياسية هي ايضا كذلك بل اكثر من ذلك لانها ليست اقدم من كتابي – في المواطن اوأسس السياسة – "وهو الكتاب الذي اتضحت فيه معالم نظريته السياسية بكل ابعادها والذي اصدره سنة 1642 ، واشارته هنا للفزياء انما هي لاعمال (غاليلو1564–1642) وتفسيراته للحركة باعتبارها مؤسسة لعلم الفزياء الحديث ،وهوبز التقى بغاليلو وترك اثرا عميقا عليه . لكن يمكن القول ان فلسفة هوبز السياسية هي مزيج من التامل الفلسفي والمنطقي العميق ،مع الاهتمامات العملية أو الحدث السياسي الاني الذي كان يدور في انكلترا في ذلك الوقت . لكنها تبقى مع ذلك فلسفة خالصة لاتقرر واقعا سياسيا يتم تقريرة والكشف عنة ،بقدر ماهي جهد تأملي يسعى الى بناء نسق من المفاهيم الفلسفية لعلم جديد هو علم الساسية .وهو من هذه الناحية – اقصد البناء الفلسفس للنظرية السياسية – يبدوا اكثر اهمية وعمقا من(ميكافيلي 1467–1527)بالرغم من المقام العالي الذي يحضى به ميكافيلي في هذا العلم .

اولا : تدشين علم جديد .

في البداية دعونا نسأل من اين نبدأبدراسة هوبز ؟ فقد اشيد بالرجل كثيرا باعتباره مدشنا ورائدا لكثير من العلوم بالموازاة مع انتقاده في كل نقطة من نقاط مذهبه تقريبا ،ففلاسفة مذهب المنفعة يعدونه سلفهم العقلي ،وبالاخص الاساس الآلي الذي شيد عليه علم النفس ..وكان ماركس ينظر اليه باعتباره رائد المادية ،وهو كذلك بالفعل . كما اثنوا على هوبز لاهتمامه باللغة واساليبه الفنية في التحليل . وعد ابو علم النفس الحديث ،وواحدا من اوائل علماء الاجتماع الذين انتهجوا منهجا علميا .*

فهل نبدأ بتصنيف الرجل واعمالة ، طبقا لهذا الموروث الغني والخصب الذي تركه؟ .ام نلتقط الجزء الذي لايزال يذكر من فلسفته بكثير من المدح او القدح الا وهو نظريته السياسية؟بدأئنا من الخيار الثاني ،محاولين

موضعة نظريته السياسية في سياقها التاريخي كنتيجة للصراعات الطاحنة ،التي كانت تعاني منها اوربا بين السلطة الزمنية والسلطة الكنيسية من جهة ، وكاستلهام للعقلانية المندفعة في القرن السابع عشر ، وهي تحاول ان تنفض عنها غبارالعصر الوسيط، وعلوم الاقدمين ،التي عصف بها رجال العلم الجدد الى غير رجعة.

نبدأ بدراسته بعده واحدا من رواد العلم الحديث – في علم السياسة تحديدا –العلم الذ بدأ يهز اركان السلطة السياسية والمعرفية التقليديين ؛ في حين انه لم يوطد اسسه بعد باعتباره مرجعية معرفية نهائية لاوربا .

لقد كان الرهان الحاسم بالنسبة لهوبز هو في تحديد موقف نهائي من الطبيعة البشرية وهو امر يسمح له فيما بعد ان يقوم بالاستدلالات الازمة من هذا التحديد ،وابراز الإمكانات السياسية والعلمية التي ينطوي عليهابشكل منطقي العلى .

لذا فاننا نجد في المؤلفات السياسية الثلاثة لهوبز وهي: (عناصر القانون الطبيعي والسياسي) ،(في المواطن او أسس السياسة)،(التنين). نجد فيها ان هوبز يتبع منهجا واحدا حيث يبدا بتحليلات انثروبولجية ، ثم يتبعها بتحليل السلطة السياسية وضرورات نشاتها ،ويختتمها بالبحث عن الديني و علاقته باهم القضايا الفلسفية ،وقضية تاويل النصوص الدينية ،وعلاقتها بالسلطة ذات السيادة .اذن البداية هي دائما عن المبدأ المؤسس الذي يريد ان يشيد عليه علمه الجديد .

ويبدو لي أن هذا المنهج الذي اتبعه هوبز لايخلو من دلالة– انه يذكرنا بمنهج ديكارت النمطي في مؤلفاته،وربما كان هوبز يستلهم ديكارت هنا الذي اشاد فلسفته على مبدأ مؤسس هو الكوجيتو ،سيما اذا عرفنا انه كانت بين الرجليين لقائات ونقاشات– الا ان دلالته بالنسبة لهوبز تكمن في اهمية التعرف والتعريف بالموجود البشري،من وجهة نظر تلقي النظريات الدينيةوالفلسفية التقليدية خلف ظهرها، لانه يستغرق في تحليلات انثروبولوجية تستبعد الروحي تماما .وذلك قبل الدخول في الحديث عن السياسة والعلم السياسي لاننا نجد لدية تاكيدا على ان محاولة انشاء علم سياسي لايصبح امرا ممكنا ،ما لم نواجه حقيقية الموجود البشري وطبيعته ."فحتى نشكل معرفة واضحة فان من المهم نعرف طبيعة الانسان ."1"

فهل هناك ارتباط بين التأمل في الطبيعة الانسانية وبين محاولة التأسيس لعلم السياسة .؟ "ان مسعى هوبزالرامي الى تأسيس وتدشين علم للسياسة،يقيم علاقة صارمة تشبه كثيرا نوع العلاقة بين السبب والنتيجة ، يقيمها بين مكونات الطبيعة الانسانية وبين بناء السلطة السياسية" .2"

وهو يلجأمن اجل هذه الغاية الى مبادىءالفزياء و الميكانيكا الجديده، وغايته في انه يريد من المادية الفزيائية ،ان تكون الاساس الصلب الذي يؤسس علية علمه الجديد . بمعنى ان تصبح الطبيعة البشرية امتداد للطبيعة الفزيائية ،فما ينطبق على الطبيعة من قوانيين المادة ،والحركة تسري على البشر. اذ نحن جزء من الطبيعة وبالتالي يمكن ان نخضع للدراسة والتحليل، اننا لم نعد في نظر هوبز كائنات عصية على فهم دوافع سلوكها وتصرفاتها .يقول هوبز بلغة توكيدية نادرا مانجدها عند غيره من الفلاسفة:

" ان هذا الكون، اي جميع كتلة الاشياء الموجودة ،مادي . بمعنى انه يتكون من جسم له ابعاد معينه كالطول والعرض والعمق .كما ان كل جزء من هذا الجسم عبارة عن جسم ايضا .وله نفس الابعاد .وبصورة اخرى فان كل جزء من هذا الكون عبارة عن جسم بحد ذاته ،والجسم الذي لايمثل جزءا من هذا العالم لايمثل شيئا موجودا في مكان ما ". 3

فدراسة الطبيعة الإنسانية لاتهدف الى تبريروتفسير المجتمعات القائمة بالشكل الذي يراه هوبز فحسب ،بل انها كذلك تمد العلم الجديد الذي يريد ان يدشنه بنواة صلبة من خلال دراسة الانسان دراسة (علمية)وفقا لمبادئ الفيزياء الجديدة.

انه ضرورة من ضرورات التأسيس (للفيزياء البشرية) الجديدة وبعبارة هوبز "اذا كانت الفزياء شيء مطلق الجدة فأن الفلسفة السياسية هي ايضا كذلك، بل اكثر من ذلك لانها ليست اقدم من كتابي – في المواطن 4."

واذا كان الامر كذلك الايمكن ان يؤدي هذا الى اول استنتاج منطقي هو : ان السلطة السياسية يمكنها ان تكون مستقلة عن السلطة الدينية .؟وليس هذا فقط بل تصبح "شيء صناعي " ان بناء الدولة التي قام بها الانسان تشبه عملية الخلق بالنسبة للعالم التي قام بها الله ،لقد خلق الانسان هذا "التنين – " Leviathanالهائل المسمى الدولة .وهو امر يذكره هوبز في مقدمة القصيرة لهذا الكتاب .دولة صلدة منيعة ،تعد محاولة تقويضها ضربا من الجنون ،انها "الاله الفاني " كما يسميها احيانا .

هو امر لم يكن الخوض فيه مأمون العواقب بالرغم من روح عصر النهضة المتحرره ، وتشبع هوبزبهذه الروح العلمية للقرن السابع عشر ،وهو يحاول مثلما حاول ان يفعل معاصره المفكر الفرنسي (هوغوغروتيوس 1583–1645) الذي وضع حدا لنظرية الحق الالهي في اطار النظرية السياسية في كتابه(في قانون الحرب والسلم الذي اصدره سنة 1625)مناديا بنظرية الحق الطبيعي وواضعا لاصول قواعد كلية وعامة وملزمة للناس قاطبة في علاقات العنف فيما بينهم ،فالبت في ما اذا كانت الحرب عادلة او ضالمة ،وفي ما اذا كان

يحل للملك ان يفرض على رعاياها ديانة بعينها او لا ،واين تبدأوأين تنتهي مشروعية سلطانه،لايكون من وجهة نظر افراد ، بل من وجهة نظر العقل اللاشخصي وبأسمه .

فأن كان مكيافيلي –الذي عادة مايعد كمدشن لعلم السايسة– يرى ان الصراع البشري هو صراع بين قوى وارادات فردية لاسبيل الى حسمه الا بالعنف ، فان غروتيوس رأى علاقات قانونية محددة ،فالقانون الطبيعي نظام للعقل يأمر بعمل او ينهي عنه تبعا لاتفاقه او عدمه مع طبيعة الموجود العاقل ."4"

لقد كان هناك قاسما مشتركا بين الرجلين الاوهو :نقل المشروعية السياسية من ميدان اللاهوت الى ميدان المشروعية البشرية ."5"

انهم جزء من مسيرة عقلانية شاقة لكن واثقه من نفسها سادت اوربا بقوة في القرن السابع عشر،اخذت على عاتقها ان تنظر للعقل البشري وهو يمارس فعله هنا على الارض ،وليس البحث عن اصله الالهي .

ان اساس القطيعة التي احدثها هوبز تعود في جانب كبير منها الى احداث تصور جديد لحقل السياسة ،بمعزل عن كل شكل من اشكال الميتافيزيقا التقليدية المثقلة باللاهوت الكنسي للعصر الوسيط .وبلهجة قاسية ينتقدهوبز هذه الفلسفة فيقول :

"ان الفلسفة الطبيعية لهذه المدارس (الافلاطونية والارسطية)، هي حلم اكثر منها علما ،وان فلسفتهم الاخلاقية ليست سوى وصف لانفعالاتهم الخاصة .... اما منطقهم ،الذي كان ينبغي له ان يكون منهجا في الاستنباط ،فانه ليس سوى كلمات أخاذة وافتراءات صممت لاعاقة الذين كانو يشرعون في توجية النقد اليهم ...وليس من الممكن للفلسفة السياسية ان تقدم شيئا اتفه مما يعرف اليوم بميتافزيقا ارسطو ولا اكثر تنافرا مع الحكم مما يقوله في سياسته ولا اكثر جهلا من جزء كبير من اخلاقه." 6 "

وهنا يلتقي هوبز وديكارت بنقدهما الجذري للمعرفة التقليدية ،قبل لقائهم فعليا اثناء اقامة هوبز في فرنسا وهي الاقامة التي افادته كثيرا بل نستطيع القول انها هي التي مكنته من اتباع النموذج العلمي اذ التقى بكبار رجاله في ذلك الوقت ممثلةً ب (غاسندي 1592– 1655) "الذي نافست تفسيراته التفصيلية للظاهرات امدا طويلا من الزمن تفسيرات ديكارت فعلى الرغم من انه رجل دين ،فهو رئيس مجلس كهنة مدينة ديني ،الا انه من هواة الرصد الفلكي ،ونصيرا لنظرية كوبر نيكوس ،ومراسلا لغاليلو الذي وصفه بانه عبقري القرن ."7"

فقد ايقن منذ ذلك الوقت بحقيقة ظلت تتحكم بانتاجه الفلسفي بصفة غير مباشرة وهي انه لما كانت وحدة القوانين الطبيعية يمكن التعبير عنها تعبيرا رياضيا فان الانسان لايصبح بذلك (سيدا للطبيعة ومالكا لها) كما

يقول ديكارت ، فحسب بل وفاعلا فيها بصفة مباشرة ،اذ ان بامكانه ان يصنع طبيعة ثانية ،تمتاز بالديمومة والاستمرار،وهذه الطبيعة الثانية هي المجتمع البشري .

"ان الفلسفة السياسية لهوبز تتأسس من العلوم الطبيعية لان اشكاليتها تستبعد كل تامل ميتافيزيقي ولان منهجها لايمكنه الا ان يكون تحليليا تركيبيا كما هو الشأن في الفزياء او علم وضائف الاعضاء لانها في تخليها عن العلل الخادعة ينبغي ان تجيب عن السؤال (كيف)من خلال الكشف عن المبادىءاوالمبدا المؤسس"8"

و فلسفة هوبز السياسية لايتم فهمها فهما عميقا الا في علاقتها بالسلطة ،بانواعها الثلاثة ،الزمنية و الروحية والمعرفية ،فالسلطة الزمنية يعتبرها هوبز هي المسؤولة عن خراب انكلترا وما حل بها من حروب اهلية ودمار .اما الروحية فلانها تقول ان لاسلطة الالتلك التي تتأسس على الحق الالهي ،في حين ان السلطة المدنية لاتتعلق بالدين ،اما السلطة المعرفية فلانها الوريث الشرعي للفلسفة الأفلاطونية والأرسطية التي هي مجرد اضغاث احلام .

وانطلاقا من هذه العلاقة الثلاثية المتشنجة، يفهم لجوئه الى السلطة العلمية ،باعتبار "إن الفيزياء السائدة في عصر ما تؤثر تأثيرا عميقا في نظرية المعرفة في ذلك العصر"7" باعتبارها الملجأ الوحيد للتنظير السياسي والبناء الفلسفي على حد سواء بغية تخليص السياسة او بالاحرى تأسيسها بمعزل عن اية مسلمات ميتافيزيقية .

فالخطوة الاولى في الفلسفة او العلم السياسي الجديد ليست تقريرا او اقرارا للنظام القائم بين الاشياء .او البحث عن اسس من المعقولية للعالم الواقعي من خارجه ،ولا البحث عن افضل شكل ممكن للنظام السياسي ،بل تتعلق بخيار منهجي قائم على تقنية التفكيك بصفتها تقنية ناجعة للتمييز بين(مادة)الجسم السياسي ،و (شكله)وهو مانجده في في العنوان الفرعي لمؤلف هوبز الرئيسي– التنين–.*

تكشف البنية الثلاثية المشار اليها والتي تتكون من– الانسان –الحاكم – الاله والتي نعثر عليها لدى الفيلسوف في اكثر من موضع، عن جوهر مشروع هوبز الفلسفي بكامله .

لانها تمثل نقطة تقاطع العديد من المجالات تتداخل فيها الانثروبولوجيا وعلم الطبيعة بالسياسة،واللاهوت منظورا اليه من زاوية فلسفية.

لذا فان القول بان تركيز هوبز على السياسة كان مجرد انعكاس للفوضى السياسية التي عاصرها الفيلسوف في انكلترا وبتعبيره (فوضى الزمن الحاضر)هو امر يمكن تقبله دون ان يتناقض هذا مع ذلك مع تاكيد هوبز في بداية كتاب (التنين) "انه يتحدث بشكل مجرد عن السلطه "8 وبالتالي فان فلسفته السياسية تعتبر تاسيس لعلم السلطة السياسية ،دون ان تتخلى في الوقت نفسه عن الافصاح عن ايديولجيتها المؤيده للملكية المطلقة .او بكلمة ادق لسلطة مطلقه ، وليست سلطة بعينها .

تكشف البنية الثلاثية المشار اليها ،والتي تتكرر في اكثر من موضع من مؤلفات هوبز , تكشف عن جوهر مشروع هوبز الفلسفي ، ذلك ان هذه الثلاثية تتقاطع فيها العديد من البنى الفكرية فتتداخل فيها الانثروبولجيا وعلم الطبيعة بالسياسة باللاهوت ، لكن منظورا اليها من زاوية فلسفية .

وبالرغم من الانطباع الشائع عن هوبز وفلسفته بانها مجرد تبرير فلسفي ايديولوجي للملكية الانجليزية ، فان موقفه على مستوى التحليل الفلسفي واضح جدا ،فهدفه ليس نقد او دعم نظام سياسي محدد (قائم) كما انه ليس بصدد اسداء النصح لهذا الحاكم او ذاك في اتباع او تجنب بعض السلوكيات السياسية ،وهذا مايجعله على الضد من (ميكافيلي) "ان فلسفته هي محاولة لانشاء علم السلطة السياسية ، فهي لاتعبر عن التزام بموقف ايديولوجي محدد ."9

ان الحدث الابرز الذي احدث الاضطراب السياسي في انكلترا هو وفاة الملكة اليزابيث في سنة 1603دون ان تخلف وريثا شرعيا لها ،فانتقلت مقاليد السلطة الى ابن عمها (جاك) ملك اسكتلندا الذي ضم انكلترا وعرف بجاك الرابع ، وقد اثار من حوله الكثير من العداوات والاضطرابات السياسية ، اما علاقته بالكنيسة فقد تميزت بنوع من التوتر . واضطربت الامور اكثر حين اجتاح الجيش الاسكتلندي بعض اجزاء انكلترا ، حينها اجتمع برلمانها واتفق اعضائه على الثورة والمناداة بنظام جمهوري ، واعلن الحرب على النظام الملكي ،فكانت تلك بداية مايعرف (بالبرلمان الطويل) ولهوبز مؤلف يحمل هذا العنوان (البهموث – او البرلمان الطويل)وهو عبارة عن تاريخ للحرب الاهلية مفسرة على ضوء ارائه عن الانسان والمجتمع ، ونشر بعد وفاته سنة 1682 .

وولد هذا الصراع انشقاقا في الكنيسة (الانجليكانيين) الذين وقفوا الى جانب الملك و(الكاثوليك ، والبيوريتان ،والكالفنيين)الذين وقفوا الى جانب البرلمان ،وكانت تلك هي بداية الحرب الاهليه التي استمرت الى سنة 1644 ولم يتمكن اي من الجانبين من تحقيق النصر فيها . الى ان تمكن (كروميل)من قيادة المعارضة

والتغلب على الملك وانصاره وطالب بمحاكمته ،وفعلا تمت محاكمة الملك واعدم سنة 1649 وتم اثر ذلك اعلان النظام الجمهوري .

هذه الاضطرابات هي مادفعت هوبز الى الهرب الى فرنسا ، وان يعجل بنشر كتابه في(المواطن_ De Cive–1642) والذي يبسط فيه من حيث الجوهر ذات الاراء التي يبسطها فيما بعد في (الليفايثان)لما يمكن ان يقدمه من فائدة في تلك الضروف التي كانت تعصف بانكلترا .

لكن لم يكن اندلاع الحرب بالفعل هوالذي افضى الى ارائه بل توقع هذه الحرب ،وايا ماكان فأن الافكار التي اقتنع بها تقوت عندما تحققت مخاوفه ."10"

ان اعلان الفيلسوف عن تحبيذه للسلطة المطلقه التي لاتقبل التجزأة والتعدد وتهجمه على النظام الديمقراطي في هذا الجو المشحون ،جعلت المنفى اختيارا صائبا ، بل ومتمشيا مع مبدأه الاساسي في تفسير السلوك الانساني وهو مبدأ : حب البقاء . والخوف من الموت .

والغريب ان (كروميل) قد سمح لهوبز بالعودة الى انكلترا سنة 1651 ،لكن الغرابه تزول ان عرفنا ان هوبز يميل الى التمثيل الشعبي مستندا في ذلك على نظريته في العقد الاجتماعي لاثبات ضرورة قيام الحاكم المطلق المستند الى رضى الشعب لا الى الحق الالهي ،وهكذا يمكن ان تتخذ ارائه لتبرير اية حكومة قائمة ،طالما كانت تحكم ،لان من السهولة الادعاء من جانب اي حكومة انها تمثل الشعب ،ان اراءه تبرر حكومة (كروميل) الجمهورية مثلما تبرر حكومة (شارل الثاني) الملكية التي عادت الى الحكم سنة 1660بعد الغاء النظام الجمهوري .

ونعود الى القضية الاساسية لبحثنا ،وهي ارساء العلم السياسي كهدف مركزي في فلسفة هوبز قامت من اجله بقية فروع فلسفته سواء الطبيعية او الفزيولوجية او النفسية .

ان النسق الفلسفي عند هوبز يمثل احدى ابرز الوثائق الفكرية في عصره ،ويرتكز اساسا على تحليل نظري لذلك التماثل بين بنية التكوينات الطبيعية وبنى التكوينات الاجتماعية ،بين المركبات الفزيائية من جهة والطريقة التي يتحد بها الناس في الدولة من جهة اخرى . والتعاليم التي يستخلصها هوبز بصدد الدولة والتاريخ لايمكن فهمها من دون معرفة تصوره للطبيعة , وهذه الاخيرة تنطلق في حد ذاتها من قاعدة الفكرة الميكانيكية للعالم التي كان العلم الصاعد يواجه بها الكون في العصر الوسيط كحل لكل الالغاز ."11"

ان علم السياسة الذي ينشده هوبز قادر على استيعاب (النموذج– Paradigm) الجديد الذي ارسى اسسه (غاليلو) الذي التقاه الفيلسوف سنة 1636 واثر فيه تاثيرا عميقا ،واعتبره المثال الذي يتوجب على الفيلسوف الاقتداء به ، ومن غاليلو يستمد هوبزشجاعته في الهجوم على تفسير ارسطو للحركة يقول هوبز:

في مايتعلق بعلم الطبيعة فانهم – اي ارسطو واتباعه – يقولون كلمات فارغة فقط ،فان كنتم تودون معرفة السبب الذي جعل بعض الاجسام تتجه على نحو طبيعي نحو الاسفل في اتجاه الارض بينما تبتعد عنها انواع اخرى ،فأن المدارس تقول لكم حسب مايراه ارسطو ،ان الاجسام التي تكابد نحو الاسفل هي اجسام ثقيلة وان ذلك الثقل هو الذي جعلها تهبط . لكنكم اذا سألتموهم عما يعنونه بالثقل فأنهم يعرفونه بصفته جهدا تبذله الاجسام للوصول الى مركز الارض . بحيث تكون علة هبوط الاشياء الى الاسفل جهدا تبذله لكي توجد في الاسفل ،وهو مايعني ان الاجسام تهبط وتصعد لانها هي التي تفعل ذلك وسيقولون ايضا ان مركز الارض هو مكان الراحة والحفظ ،والبقاءللاشياء الثقيلة،ولهذا فأنها تبذل جهدا لتكون هناك ،كما لو كانت الحجارة والمعادن تعرف رغبة او في مقدورها ان تعرف مثل الانسان ، الموقع الذي ينبغي ان توجد فيه ."12"

انها نوع من النظرة الاحيائية التي سيطرت على فزياء العالم القديم المعززة بمقولة ارسطو بأن الاشياء تبحث عن مقارها الطبيعية والتي ازيلت مع ولادة العلم الجديد وعلى الاخص مع غاليلو الذي فسر الحركة ،وصاغ قانون القصور الذاتي الذي بين ان الاصل في الاشياء هو الحركة وليس السكون .

لذا يصبح من الطبيعي جدا ان تتماشى فلسفة هوبز بشقيها الطبيعي والسياسي مع (النموذج – paradigm) الآلي ، الذي سيطر على العلم الحديث قبل النظرية النسبية ،والحقيقة اننا نجد هوبز اوضح من غيره في الاعلان عن ماديته ، ففي رأيه ان الحركة والامتداد كافيان في تفسير كل شيء من الطبيعة الى الاحساس من الكون الى الانسان من المجتمع الى الدولة .

ثانيا– المبدأ المؤسس لنظرية هوبز السياسية :

ان التفرقة التي يقيمها هوبز بين الموجود الطبيعي والموجود الصناعي ،تجعله ينتقل الى الخطوة الاخرى ، وهي الحالة الطبيعية للموجود البشري ،ليرى مالذي يمكن ان يتأسس على هذه الحالة الطبيعية . لكن ماهي العلامة التي يمكن ان ترشدنا الى ماهو طبيعي وماهو صناعي ؟الجواب هو: ان الطبيعي هو مانجده على ماهو عليه ،بدون تدخل منا ،ويخرج من نطاق فعلنا وقدرتنا . فالاشياء الموجودة ولادخل لنا في وجودها هي التي تشكل "عالم الطبيعة "هو عالم لم يخلقه الانسان ،ولم يصنعه احد من البشر .

الدولة بناءا على هذه التفرقة هي موجود صناعي ،او بلغة هوبز "انسان صناعي "13"

ومنطقيا نستنتج ان هناك حالة تسبق قيام الدولةوهي الخطوة التي تسبق عرض هوبز لنظريته السياسية في تكوين الدولة .هذه الحالة يسميها هوبز "حالة الطبيعة – state of nature " وهو هنا يعني بها الوجود البشري الخام او القطيعي الذي خلي بينه وبين غرائزه الطبيعية ،بدول اي تدخل من اي جهة كانت .انها وصف للحالة التي لابد ان يسلك الناس على اساسها ويتصرفون تبعا لها ، مالم تكون هناك سلطة تلزمهم بالقانون او العقد .

فأن كانت هذ هي الحالة الطبيعية فياترى ماهو المحرك او الدافع الاساسي لسلوك وافعال البشر ؟ ويأتي جواب هوبز حاسما وقاطعا " ان المحافظة على الذات وتعزيز بقاء المرء ووجوده هي المبدأ الاول الذي نشتق منه كل المبادىء الاخرى فالغاية الاساسية للانسان هي المحافظة على ذاته "14"

هذا هو المبدأ المؤسس والمسلمة الكبرى التي يبدأ منها هوبز . ان الميل الطبيعي للكائن الحي يحتم عليه ان يحافظ على ذاته ،واتساقا مع هذا المبدأ نجد الانسان في حالة الطبيعة يرغب في المحافظة على بقائة ويسعى الى كل ما يدعم وجوده . وهذا السعي هو حق طبيعي ،وكلمة حق هنا تعني الحرية التي يمتلكها كل انسان في استخدام قدراته الطبيعية طبقا للعقل السليم للمحافظة على حياته الخاصة ،وبالتالي حريته في ان يفعل اي شيء في تقديره وتصوره انه انسب الوسائل لهذه المحافظة .ومن ثم فأن الاساس الذي يرتكز عليه الحق الطبيعي هو : لكل انسان الحق في ان يبذل جهده لحماية حياته وصيانة اعضائة بكل ما اوتي من قوة 14".

المبدأ المؤسس اذن هو "المحافظة على الذات " واي رفض لهذا المبدأ يوقعنا في تناقض صريح ، انه مبدأ يمليه العقل الطبيعي ،انه الشرط الذي لابد منه لاشباع اي رغبة ، ومن هذا المبدأ يستنبط هوبز نتجيته المنطقية وهي "الحق الطبيعي " اعني ان لكل انسان الحق في استخدام قوته للمحافظة على حياته ،له الحق في ان يعمل أي شيء ،وكل شيء لكي يدعم هذا البقاء وكل مايساعده على البقاء والمحافظة على ذاته فهو حق له لايحده شيء ،ان في حالة الطبيعة لكل انسان الحق في عمل اي شيء وكل شيء .

بل ان هوبز يستنبط من هذا المبدا مجمل البناء السايكلوجي والاخلاقي للانسان . فما الخير واشر ،واللذة والالم ، والسعادة والحزن ...الخ انما جذرها يكمن في هذا المبدأ الاول .فلا يمكن ان يكون لديه دافع ايجابي ومؤثر يعمل ضد هذه المحافضة على بقائة .انه القاعدة الاساسية التي تكمن وراء كل سلوك لان الكائن

الحي مدفوع بالغريزة للمحافظة على حياته وادامة بقائها ، ان المحافظة على الذات هي المبدأ "الفزيولوجي "الكامن وراء كل سلوك ،فما يؤدي الى هذه الغاية فهو خير ومايتعارض معها فهو شر .

ومن حالة الطبيعة ،ومن هذا المبدأ ،مالذي نتوقعه من سلوك بين البشر ؟ ان استنتاج هوبز المنطقي ومثلما هو مشهور عنه هو : "حرب الجميع ضد الجميع "ان هوبز هنا يصف الطريقة التي لابد ان يسلكوها بناءا على هذا المبدأ ، وهو كما نتوقع لابد ان يكون صراعا يقوم به كل انسان نحو كل انسان اخر ،صراع من اجل المحافظة على نفسه والسيطرة على الاخرين .انها اجابة هوبز عن سؤاله الافتراضي الذي طرحه في "التنين : ماهي ياترى طريقة الحياة التي لابد ان توجد اذا لم تكن هناك قوة عامة قادرة على بث الخوف والخشية في قلوب الناس "وكانت اجابته التي لم يتردد بها كثيرا "اننا سوف نصل الى حالة الحرب الشاملة وسوف يتحول كل انسان الى ذئب نحو اخية الانسان " ان الطبيعة الاولى لانسان هي طبيعة حيوانية تماما "يغلب عليها الغرائز الظلم والجور والعنف وتسودها الدوافع الطبيعية التي لم تروض بعد والاعمال والمشاعر اللانسانية .ولاشك ان المجتمع والدولة يمارسان نوعا من الحد ،لكنه حد للغرائز الفجة والانفعالات الوحشية وحدها "16"الصراع اذن هو الاستنتاج المنطقي السليم من مبدأ المحافظة على الذات وهناك مجموعة من العوامل تغذي هذا الصراع وتجعله اشد ضراوة واشد عنفا ،عوامل هي الاخرى لازمة منطقيا من المبدأ السابق وسوف اكتفي بذكرها فقط وهي : المساواة في المقدرة سواء العقلية او البدنية . المساوة في الامل، بمعنى ان كان الناس متساوين في قدراتهم فسوف يحدوهم الامل في الوصول الى مايشتهون ،ومن ثم تصبح العدواة شيئا لازما من هذا الدافع .وهذا العامل هو نتيجة منطقية من العامل الاول .وهناك عامل تعارض الاهداف .وعامل المنافسة .وانعدام الثقة .وغيرها من العوامل . *بقي ان نؤكد هنا ان هوبز هنا لايصف حالة تاريخية موجودة بالفعل كان الناس يتصرفون فيها بهذا الشكل العنيف ،بل هي افترض منطقي ،انها حالة افترضية حين يغيب فيها المجتمع والدولة ،فهي لاتعبر عن مرحلة تاريخية معينة مرت بها البشرية قبل ان تصل الى حالة التمدن ،انها فكرة بنائية ضرورية لفلسفته السياسية ان تبدأ من وصف الحالة الطبيعية ،حتى يبين ان الدولة تنبثق ضروريا ومنطقيا من حالة الطبيعة هذه . ان هوبز لايروي لنا تاريخا واقعيا او حقيقيا ،وانما هو يقوم باستنباط منطقي ليس الا .ان حالة الطبيعة هي ضرب من التجريد الذي يسبق الفلسفة السياسية ."ان حالة الحرب لم تكن موجودة في يوم من الايام وانا اجزم انها لم توجد قط على نحو شامل ولم توجد في جميع انحاء العالم .ولكن هناك اماكن عديدة يعيش الناس هكذا ألان،فأن الشعوب الوحشية في اماكن عديدة من امريكا لايملكون اي حكومة ... وهم يعيشون الى اليوم بالطريقة الوحشية التي تكلمت عنها سابقا ."17

انها استنتاج منطقي تسبق الدولة وهي شرط قيامها في الوقت نفسه انها تبرر قيام الدولة بل ضرورتها المطلقة .ان هوبز يجعل الحاجة الى الدولة تنبثق من حالة الطبيعة والسبب ،هو ان الناس كلما ادركوا النتائج المرعبة الترتبة على حالة الفوضى والاضطراب تشبثوا بالقانون وتمسكوا بالنظام .لقد كان هوبز" يستبد به هاجس الخوف من الفوضى... لذا يصبح السبب الذي يقدمه لدعمة للدولة صحيح تماما. "18ومثلما كان هاجس الخوف من الفوضى سببا للتمسك بكيان الدولة وسلطانها ، فأن هناك سببا اخر ، هو منطقي تماما ،فحتى يتجنب الناس حالة حرب الجميع ضد الجميع ،فأن العقل يفرض علينا ان نخرج منها . لسبب بسيط هو كون أن "حالة الطبيعة "تناقض نفسها بنفسها ،فهي تلغي ذاتها بالضرورة ،انها قامت اساسا على على مبدأ"حفظ الذات "وهو حق لاينازعها فيه احد ،فهو حق مطلق لكل فرد . لكن هذا المبدأ ستكون نتيجتة المنطقية القضاء على الذات – نتيجة الحرب الطاحنة – أي القضاء على المبدأ ذاته .ان هذا الموقف يحمل في طياته نفس علاجة ،فالسبب الاساسي للسلوك البشري الذي يؤدي الى حالة الحرب يستطيع ايضا ان يزودنا باسباب الخروج منها ،والخلاص من هذا الصراع العنيف ،لان السبب الرئيس كان الرغبة في المحافظة على الذات،وهذا يعني منطقيا تجنب الموت والابتعاد عنه .أن حالة الحرب التي ينقاد اليها الناس برغباتهم الطبيعية الغرائزية "القطيعية"والتي تصبح فيها الحياة "عقيمة ووحشية وقصيرة الامد "تنتهي الى نتيجة هي عكس الهدف الذي كانت تنشده ،فالناس يجدون انفسهم في موقف من المحتمل جدا ان يفقدوا فيه حياتهم ،وليس في مستطاعهم ان يتجنبو الموت لفترة طويلة . وهكذا نصل منطقيا ايضا الى الخوف من الموت وهو دافع ينشأ في حالة الحرب ، ويزودنا بالمبرر الذي يجعلنا ويجعل كل الناس في التفكير جديا للخروج من هذا الوضع المرعب .أن الانسان العاقل يستطيع ان يكتشف وبكل سهولة مايضاد هذه الحالة وبالتالي يسعى الى ايجادها .وهذه الحالة المضادة هي ببساطة السلام الذي تؤمنه سلطة عادة ماتتمثل بشكل "الدولة = التنتين "القوية المتماسكة والتي تعد مقاومتها ضرب من الجنون كي نتجنب فيها العودة الى حالة الطبيعة مرة اخرى .ومرة اخرى اود ان اؤكد أن هوبز هنا يتكلم عن حالة افتراضية ، ومن ثم يقوم هوبز باستنتاجاته المنطقية، بناءا على هذه الحالة ، ومن الجدير بالذكر أن رسل قد اشار الى أن مذهب هوبز ماهو الا مذهب مبني على الاستنتاجات المنطقية .*مثلما أن الاستنتاج المنطقي هو الذي قاده الى ان يقول بنظرية "العقد الاجتماعي " كي يخرج الانسان من حالة الطبيعة ،الى قيام الدولة . وهو امر يحتاج الى بحث مستقل .

الهوامش :

* لمزيد من التفاصيل عن كل هذه الاراء انظر : the Encyclopedia of philosophy .the MacMillan company ,New York .1967.vol.4.pp.44-45

افضل نشرة لاعمال توماس هوبزالانكليزية هي نشرة السير وليم مولسووروث سنة 1839 وحتى 1845 في احد عشر مجلدا بعنوان،THE ENGLISH WORK OF THOMAS HOBBES وظهرت الطبعة الثانية منهافي لندن وفي برلين في الوقت ذاته سنة 1966 وهي التي نعتمد عليها هنا ، وسنشير اختصارا اليها بالحروف .E.W ,وتعني الاعمال الانكليزية (لان الناشر اصدر لهوبز اعماله اللاتينية ايضا)ثم عنوان الكتاب و رقم المجلد والصفحة

1- HOBBES.E.W. HAUMAN NATUER. Vol.4.p.56.

2- GOYARD FABR.Foundations of the Political theory. New York .1986.p.18

3- موريس كلاين ،الرياضيات والبحث عن المعرفة ،ترجمة: سمير ياسين يوسف ،دار الشؤون الثقافية ،بغداد 1987 .ص221 .

4- HOBBES.E.W.DE CORPORE.vol.4.p31.

5- اميل برهييه – تاريخ الفلسفة – القرن السابع عشر ، ت جورج طرابيشي .دار الطليعة بيروت ،1983 ص9 .

6- HOBBES. E.W, LEVIATHAN.vol.3.p 664.-.ايضا : ص 634-635 من الترجمة العربية .

7 – برييه , المصدر السابق , ص22.

7- GOYARD, op.cit,p.27

8- رايشنباخ ،نشأة الفلسفة العلمية ،ترجمة فؤاد زكريا بيروت ط2 ،1979 .ص142.

- العنوان الفرعي هو : مادة ،وشكل ،وسلطة، الدولة –المدنية والدينية – THE MATTER,FORM,AND POWER of A COMMONWEALTH.ECCLESIASTICAL,AND CIVIL. وجدير بالذكر هنا ان الترجمة العربية الصادرة مؤخرا لهذا الكتاب "اللفايثان= التنين " التي قامت بها كل من ديانا حرب وبشرى صعب ،الصادرةعن مشروع كلمة للترجمة ،التابع لهيئة ابو ظبي للثقافة 2011 ،مراجعة وتقدم : رضوان السيد .يتخلى عن هذا العنوان الفرعي بالرغم من دلالته المقصودة بالنسبة لهوبز وذكر عوضا عنه كعنوان فرعي :"الاصول الطبيعية والسياسية لسلطة الدولة " وهو مالم نعتمد ه مثلما لم نعتمد على هذه الترجمة في الاشارة للنصوص المقتبسة من هذا الكتاب ،لا لشيء الا لان معظم ماة هذا البحث كانت هيئت قبل ان

تتاح للباحث الحصول على النسخة العربية من هذا العمل .وكان اعتمادنا على النسخة الانكليزية للاصل المنشورة ضمن اعمال هوبز المشار اليها سابقا .كون الترجمة الحالية اعتمدت على النسخة الفرنسية ، لكن اشير بعض الاحيان الى هذه الترجمة ،لسهولة الرجوع اليها بالنسبة للقارىء المتابع .

8- HOBBES,E.W. LEVIATHAN.vol.3 .Introduction.

9-22. GOYARD, op.cit,p , وبصدد شيوع النظرة عن ايديولوجية فلسفة هوبز انظر : J.W.N.Watkins ,Hobbes system of Ideas, London. Hutchison university Library ,1973. pp.55-61

10- برتراند رسل , تاريخ الفلسفة الغربية , ت . د.محمد فتحي الشنيطي ,ج3 , الهيئة المصرية للكتاب 1977 ص89 .

11- ماكس هوكهايمر , بدايات فلسفة التاريخ البرجوازية . ت. محمد علي اليوسفي , دار التنوير للطباعة والنشر ط1 بيروت – لبنان 1981 ص36 .

12- HOBBES.E.W, LEVIATHAN.vol.3 .pp.674-675. ايضا: ص 642-643 من الترجمة العربية

13- .HOBBES.E.W, LEVIATHAN.vol.3 Introduction.

14- Ibid.pp.111-116

15-Ibid.pp.92-93

16- هيجل ، محاضرات في فلسفة التاريخ ، الجزء الاول :العقل في التاريخ ، ت. د.امام عبد الفتاح امام ، . دار التنوير .بيروت .ص105.

* انظر :ص 131 ومابعدها من الترجمة العربية .

17- .Hobbes.E.W. Leviathan.VOL3.p.90 ايضا : ص136 من الترجمة العربية

18- رسل , المصدر السابق , ص101-102 .

*- رسل , المصدر السابق . ص102